تجلّيات مبادئ التّخاطب (قواعد التّخاطب) في كتاب البيان والتّبيّين للجاحظ

The manifestations of the principles of communication (the rules of communication) in the book of the statement and identification.

د. بـن يطـــو بن عمـران

تاريخ الاستلام: 29 06 2020 تاريخ القبـــــول: 16 10 2020

ملخّص: لقد أولت المقاربة التّداوليّة الاهتمام بدراسة اللغة في استعمالها التّواصلي من خلال الخطابات والنّصوص للكشف عن المعاني المقصودة التي تتضمنها، والوظيفة التي تؤديها بالنّظر إلى السّياق الذي يؤطرها، والعلاقات التي تتحكم فيها النّاشئة بين أطراف الخطاب.

ومن هذا المنطلق تحاول هذه المداخلة التّعريج على مبحث من أهم مباحث التّداوليّة ألا وهو مبحث **مبادئ التّخاطب (قواعد التّخاطب)** نظرا لأهميته في التّواصل اللغوي المتداول بين النّاس في الحياة اليوميّة، وتبحث عن تجلياته في التّراث البلاغي والأدبي العربي من خلال كتاب البيان والتّبيين للجاحظ. لذا برز التّساؤل الآتي:

–ماهي ملامح وتجليات مبادئ (قواعد) التّخاطب في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ؟

الكلمات المفتاحيّة: التّداوليّة، مبادئ الخطاب، مبدأ التّعاون، مبدأ التّأدب.

جامعة يحيى فارس–المديّة، الجـزائـر، البريد الإلكتروني: habibeelhabibe2018@gmail.com (المؤلّف المرسل)

Abstract : The pragmatics approach has paid attention to the study of language in its communicative use through speeches and texts to reveal the intended meanings it contains, the function it performs in view of the context it frames, and the relationships it controls arising between the parties to the discourse. From this standpoint, this intervention attempts to shed light on one of the most important pragmatics topics, which is the topic of the principles of communication (the rules of communication) due to its importance in linguistic communication circulating between people in daily life, and looking for its manifestations in the rhetorical and literary heritage through the book of the statement And the identification. So the following question arose:

- What are the features and manifestations of the principles (rules) of conversationalism in the book of the statement and the identification?

Keywords: pragmatics ; principles of discourse ; principle of cooperation; principle of politeness.

مقدّمة: لقد أولت المقاربة التّداوليّة الاهتمام بدراسة اللغة في استعمالها التّواصلي من خلال الخطابات والنّصوص للكشف عن المعاني المقصودة التي تتضمنها والوظيفة التي تؤديها بالنّظر إلى السّياق الذي يؤطرها، والعلاقات التي تتحكم فيها النّاشئة بين أطراف الخطاب.

والتّراث اللغوي العربي مجال خصب للدراسات اللغويّة الحديثة وتطبيق النّظريات اللسانيّة الغربيّة، فالعرب كانوا أهل فصاحة وبلاغة وخطابة، لذلك فقد اعتنوا عناية

شديدة بطريقة إلقاء الخطاب وكيفيّة الإفهام والتّبيين من أجل حسن التّواصل مع المتلقي، فقد أجادوا وأفادوا في هذا المجال، وكتب التّراث الأدبي والبلاغي العربي شاهدة على ذلك. ومن أهم هذه الكتب كتاب البيان والتّبيين للجاحظ الذي يدل عنوانه دلالة واضحة على المقاصد التي يروم محتواه تحقيقها تلميحا وتصريحا.

ومن هذا المنطلق يحاول هذا المقال التّعريج على مبحث من أهم مباحث التّداوليّة ألا وهو مبحث **مبادئ (قواعد) التّخاطب** نظرا لأهميته في التّواصل اللغوي المتداول بين النّاس في الحياة اليوميّة، وتبحث عن تجلياته في التّراث البلاغي والأدبي العربي من خلال كتاب البيان والتّبيين للجاحظ.

1-تعريف التّداوليّة: لقد تعددت التّعريفات التي تحدد مفهوم التّداوليّة صياغة وتقاربت معنى، ولعل من أهمها وأحسنها ما يلي: «(إنّ) أوجز تعريف للتداوليّة وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال (in use)، أو في التّواصل (in interaction)، لأنّه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط في المتكلّم وحده، ولا السّامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول (négociation) اللغة بين المتكلّم والسّامع في سياق محدد (ماديّ، واجتماعيّ ولغويّ) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما»[1] .

ومنهم من يعرّفها بأنّها: «دراسة المعنى التّواصلي، أو معنى المرسِل، في كيفيّة قدرته على إفهام المرسَل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله»[2]. تضم التّداوليّة عدّة مباحث لغويّة من أشهرها: نظريّة الأفعال الكلاميّة والحجاج ومبادئ (قواعد) التّخاطب الذي هو موضوع بحثنا هذا، وغيرها من المباحث الأخرى.

2-أهم مبادئ (قواعد) التّخاطب وتجلّياتها في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ (مبدأ التّأدب، مبدأ التّعاون، مبدأ الوجه): يتحكّم في بناء الخطاب عدّة أمور منها العلاقة التي تربط بين طرفي الخطاب والغرض الذي يسعى المرسِل إلى تحقيقه فيحتم ذلك عليه اختيار استراتيجيّة خطابيّة تناسب المقام وتؤدي إلى بلوغ المرام. ومن أهم مبادئ التّخاطب التي صاغها الغربيون (غرايس، لاكوف، ليتش) ما يلي:

2-1 مبدأ التّعاون: «فهم الملفوظات وتأويلها لا يعتمد على معنى الجملة في السّياق اللساني وغير اللساني وإنّما يعتمد على ما يبذله المتحاورون من مجهودات لينجح التّواصل، وهو ما سماه غرايس مبدأ التّعاون "cooperative principle"، هو مبدأ يتأسّس على أربع قواعد أو مسلمات وهي:

2-1-1-قاعدة الكميّة: ـاجعل إسهامك تتضمن أخبارا كافيّة. لا تجعل إسهامك تتضمن أخبارا أكثر ممّا هو مطلوب»[3].

وهذه القاعدة فيها مراعاة للمعاملة الإنسانيّة إمّا أن يكون المتلقي محدودَ الفهم لا يستوعب ما زاد عن المطلوب، أو يكون عالما بالأمر أو كثير الانشغالات يحتاج فقط إلى ما يؤدي الغرض وما زاد عن ذلك مضيعة لوقته الثّمين، وينطبق عليه قول العرب قديما: "خير الكلام ما قل ودلّ ". ويتضح مغزى هذه القاعدة في كلام الجاحظ الآتي: «ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم. »[4]وقد ذمّ البلاغيون فضول الكلام وألحُّوا على اجتنابه في كثير من المواضع، كما مدحوا كثيرا دقّة إصابة المعاني بالكلام الموجز، كما سنرى فيما هو آتٍ من الشّواهد وغيرها ممّا لم نذكره لضيق المقام ههنا، ومن ذلك على سبيل التّمثيل لا الحصر ما يلي: قال الجاحظ: «وهم وإن كانوا يحبُّون البلاغة والطّلاقة،... فإنهم كانوا يكرهون...التّكلُّف، والإسهاب والإكثار، لما في ذلك من التّزيُّد والمباهاة،... وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة» [5].

فإذا كان الكلام مُهِمّا يحتاج إلى تكرار لتثبيت المعنى، أو كان السّامع بحاجة إلى تكرار، لزم تكراره بالقدر الذي يحتاج إليه المستمع كي يستوعبه، يقول الجاحظ: «وجملة القول في التّرداد، أنّه ليس فيه حدٌّ يُنتهى إليه، ولا يُؤتَى على وصفه. وإنّما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عزّ وجلّ قد ردّد قصّة موسى وهود وهارون....»[6]

2-1-2-«قاعدة الكيفيّة: اجعل إسهاماتك صادقة. وتتفرع عن هذه المسلمة قاعدتان خاصتان هما: -لا تُصرِّح بما تعتقد أنّه كاذب. -لا تُصرِّح إلاّ بما تستطيع البرهنة عليه»[7].

ويتجلى مغزى هذه القاعدة في العبارات الآتيّة:

قال الجاحظ: «وكانوا يأمرون بالتّبيُّن والتّثبُّت، وبالتّحرُّز من زلل الكلام، ومن زلل الرّأي، ومن الرّأي الدّبَري، والرّأي الدّبَري هو الذي يعرض من الصّواب بعد مضي الرّأي الأوّل وفوات استدراكه. وكانوا يأمرون بالتّحلُّم والتّعلُّم، وبالتّقدُّم في ذلك أشدّ التّقدُّم»[8]. فهم يلحُّون على التّزام الصّدق في نقل الكلام، وتحري الصّواب فيه. فقوله: "يأمرون بالتّبيُّن والتّثبُّت، وبالتّحرُّز من زلل الكلام." هو ما تدعو إليه القاعدة بالضّبط من اجتناب الكذب، و"التّثبت" هو ما تستطيع البرهنة على صحته، أمّا " التّحرُّز من زلل الكلام." فهو الابتعاد عن المغالطّات وكل ما فيه تضليل أو خداع.

وهذه القاعدة تحقق منفعة كبيرة في المعاملات الإنسانيّة، إذ تؤدي إلى قطع الطّريق أمام انتشار الإشاعات المغرضة التي تجلب الغرر والضّرر، وتتسبب في فساد العلاقات بين النّاس، وتفكيك الأسر وتدمير المجتمعات. واحترامها يُوَطِّد العلاقات بين المتحاورين وينشر الثّقة بين المتعاملين.

2-1-3-قاعدة الملاءمة أو العلاقة: اجعل إسهاماتك ملائمة»[9].

كما قالتّ العرب قديما لكل مقام مقال. واحترام هذه القاعدة يؤسس لعلاقة تقدير المتلقي واحترامه، وحفظ مكانته، وتؤدي إلى إصابة الهدف المراد من الخطاب دون عرقلة أو تخليط أو تغليط. ونجد فحوى هذه القاعدة ماثلا في كلام الجاحظ إذ يقول: «للكلام غاية، ولنشاط السّامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعتَ الحكماء يعيبونه»[10]. كما يتضح في المثل العربي السّائر فهم: «يقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: " فلان يفُلُّ المَحَزَّ ويُصيبُ المفْصِل. "وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز»[11]. والأمثلة على هذه القاعدة كثيرة جدا كما سنرى بعضها فيما هو آتٍ من الشّواهد.

2 -1-4-«مسلمة الجهة: تختلف عن المسلمات السّابقة في كونها لا تعنى بما قيل، وإنّما بكيفيّة التّعبير عما ننوي التّعبير عنه. وينص غرايس على وجود قاعدة جوهريّة هي:

– **كن واضحا**. وتتفرع عن هذه المسلمة القواعد التّاليّة: –ليكن تدخلك واضحا. – ليكن تدخلك موجزا. –اجتنب الالتّباس. –اجتنب الغموض.»[12]

تتجلى عناصر هذه المسلمة في التّراث البلاغي العربي فيما يلي:

– ليكن **تدخلك واضحا**. تظهر هذه القاعدة واضحة جليّة في العبارات الآتيّة حيث يقول الجاحظ: «وعلى قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدّلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدّلالة الظّاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتَ الله عزّ وجلَّ يمدحه، ويدعو إليه ويحثّ عليه»[13].

وهذا الكلام واضح في تبيان أهميّة وضوح الدّلالة لتبليغ المعنى وإظهاره للمتلقي وإبداء التّعاون معه ليحصل فهم الخطاب بيسر وسهولة. وإن ممّا توافق عليه النّقل والعقل شرعا وعرفا أنّ مدح الشّيء أو الفعل (الموافق للشرع أو كان مباحا) يدلّ على الحثّ على إتيانه والأمر بفعله ضمنيا، كما أن ذمّ الشّيء أو تقبيح الفعل (المنافي للشرع) يقتضي اجتنابه والنّهي عن فعله بمقتضى ما تواترت عليه النّصوص الشّرعيّة واتفقت عليه المبادئ العقليّة السّليمة. وهذا ما نجده في التّراث البلاغي العربي فإذا مدحوا أسلوبا أو وصفوه بأنّه بليغ إنّما يريدون الحثّ على انتهاجه، وإذا ذمّوه فهم يريدون اجتنابه، فالإشارة عندهم أبلغ من العبارة، لذا سنصادف اختلاف صياغة المبنى اللغوي لقواعد التّخاطب بالمفهوم الغربي وما يماثلها معنىً في التّراث البلاغي العربي والعبرة بالمفهوم لا المنطوق.

– ليكن **تدخلك موجزا**. يتمثل مضمون هذه القاعدة في كلام الجاحظ التّالي ذكره: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيكَ عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطّبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التّكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التّربة الكريمة. ومتى فصلّت الكلمة على هذه الشّريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصّفة، أصحبَها الله من التّوفيق ومنحها من التّأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهَل عن فهمها معه عقول الجهلَة.» [14]وإن اختلف صياغة المبنى اللغوي لتركيب العبارتين إلاّ أنّ المعنى الذي ترمي إليه هذه القاعدة وعبارات هذا الكلام واحد، بيد أنّ

الجاحظ فصّله وأضاف له بعض المتمّمات التي تحدث وقعا مميزا في القلوب والعقول.

كما نجدها صريحة في قول معاويّة بن أبي سفيان لصُحار بن عيَّاش العبديّ: «ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاويّة: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ.»[15] وممّا يدل عليها دلالة صريحة لا غبار عليها الكلام الآتي: قال ابن الأعرابي قلت للمفضّل بن محمّد الضّبيّ: «ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.»[16]

– **اجتنب الالتّباس.** من أهم قواعد مبدأ التّعاون مع متلقي الخطاب اجتناب الالتّباس حتى يهتدي إلى المعنى المقصود دون عناء أو تضليل، ونجد في التّراث البلاغي العربي ما يؤكد هذا التّوجُّه، ويحثّ المتكلّم على توخي الإفصاح عن المعنى المقصود ليفهمه السّامع، حيث يقول الجاحظ: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضّمير، حتى يُفضي السّامع إلى حقيقته. .. لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[17]. وهذا الكلام واضح لا يحتاج إلى تعليق.

– **اجتنب الغموض.** وممّا يجعل القصد مفهوما اجتناب الغموض، وهو ما أشار إليه البلاغيون العرب القدامى فقد قال أحدهم: قلت للعتابي: «ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبْسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروغ الالسّنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحقّ،...»[18].

وممّا يزيل الغموض ويزيد من درجة الوضوح استعمال الإشارات ببعض أعضاء الجسم كاليد والرّأس وملامح الوجه وغيرها، وقد نبّه الجاحظ إلى أهميّة الإشارة في تجليّة المعنى المقصود، فقال: «وحسن الإشارة باليد والرّأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّلّ»[19]. وقد حذّر بعض البلاغيين من اعتماد الغموض والتّعقيد في الكلام نظرا لم آلاته السّلبيّة، ونتائجه غير المرْضيّة وفي ذلك يقول بشر بن المعتمر: «...وأحسن في الأسماع... من لفظ شريف ومعنى

بديع...ومهما أخطأك لم يخطئ كَأن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا... وإياك والتّوعُّرَ، فإنّ التّوعُّر يسلمك إلى التّعقيد، والتّعقيد هو الذي يستهلك معانيكَ ويشين ألفاظك»[20].

وفي هذه القاعدة لا تخفى جوانب المعاملة الإنسانيّة في التّخاطب مع الغير ويتجلى ذلك في تقنين استخدام اللغة تقنينا ضابطا للعلاقة بين المتخاطبين حتى يسود التّفاهمويعم الشّعور بالرّضا الذي يطبع درجات التّواصل بين أطراف الخطاب.

2-2-مبدأ التّأدب: أ-مبدأ التّأدب عند روبن لاكوف مختصرا: يتجلى هذا المبدأ في التّهذيب المفترض إظهاره عند التّفاعلات الكلاميّة بين المتحاورين والمتخاطبين، بالنّظر إلى بعض الاعتبارات الاجتماعيّة والعرفيّة السّائدة بينهم التي تضبط العلاقات وتنظمها، كاحترام القيم الأخلاقيّة، وعامل السّن، والمكانة الاجتماعيّة، وكل ما سبق يندرج ضمن المعاملة الإنسانيّة التي تقتضي وجود مثل هذه المظاهر الخطابيّة.

ومنطلقه هو مبدأ التّعاون الغرايسي، فقد قررت روبن لاكوف الباحثة الفرنسيّة تطعيم مبدأ التّعاون الذي يعتمد على الوضوح في التّبليغ بمبدأ آخر يستند إلى التّهذيب أسمته " مبدأ التّأدب " لأنّها ترى أنّ «المتخاطبين في تبادلاتهم الكلاميّة يحرصون غالبا حرصا شديدا على الالتّزام بقدر كبير من الأدب والبعد عن العدوانيّة أكثر مما يتوخون الوضوح. وينبني مبدأ التّأدب عند لاكوف على قاعدتين هما: **-كن واضحا** (Be Clear)، **-كن مؤدبا** (Be Polite). »[21]

2-2-1-قاعدة: كن واضحا: تتجلى في قول إسحاق بن حسان بن قوهيّ: «لم يفسِّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحدٌ قط. سئل ما البلاغة؟ ...وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك،. .. فإنّه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغْزاك،... والغرض الذي إليه نزعت. قال: قيل له : فإن ملّ السّامع الإطالة. .. قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ، فإنه لا يرضيهما شيء»[22].

2-2-2-قاعدة: كن مؤدبا: تبدو ملامحها في كلام العرب القدامى متضمنة في قول بشر بن المعتمر: «. ... ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشّريف اللفظ الشّريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجِّنهما. » [23] فهو يحث المتكلّم على التّأدب من خلال اختيار الألفاظ المهذبة لتأديّة المعاني الحسنة وصيانتها عمّا يشوب لطافتها مبنى ومعنى، وهذا هو غاية التّأدب ومنتهى احترام المخاطَب وتقديره.

يقول الجاحظ مبينا الأثر السّلبي للفظ الهجين المستقبح: «اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدّنيَّ السّاقط، يعشش في القلب... لأنّ اللفظ الهجين الرّديّ والمستكره الغبي، أعلق باللسان، وآلف للسمع، وأشدّ التّحاما بالقلب من اللفظ النّبيه الشّريف والمعنى الرّفيع الكريم...والإنسان بالتّعلم والتّكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء، يجود لفظه ويحسن أدبه»[24]. وهو بهذا الكلام يحذّر من سوء الأدب اللفظي، ويدعو ضمنيا إلى اجتنابه وتحاشيه، لأنّه ذمّه وبيّن كيف يحسن أدب الإنسان ويجود لفظه بطول تدريب لسانه من خلال ملازمة العلماء للتأسي بهم ومدارسة كتب الحكماء لتجويد الكلام شكلا ومضمونا.

ومن هنا يتبين لنا أن مبدأ التّأدب يروم جعل جوِّ المحاورة تسوده علاقات إنسانيّة راقيّة يُخيِّم عليها التّآلف والودّ، ويسوده الشّعور بتقدير الطّرف الآخر له من خلال أسلوب كلامه وطريقة عرض أفكاره، مما يدفعه إلى التّزام سلوك التّأدب مع محاوره ليحافظ على صفاء جوِّ النّقاش واستمرار ما يميزه من احترام وتقدير، بالابتعاد عن كل ما من شأنه تنفير المتخاطبين، وكل ما يثير أشكال العنف بنوعيه، وتجنب ما يوقظ التّصرفات العدوانيّة الكامنة.

2- 2-ب-مبدأ التّأدب عند ليتش:«ينبني نموذج التّأدب عند ليتش على ثنائيّة جوهريّة مدارها حول (الجهد – الفائدة)وهي ثنائيّة غير منفصلة عن طرفي الخطاب: المتكلّم والمخاطب. فالتّأدب يقتضي التّقليل من الجهد، وزيادة الفائدة لحدها الأقصى لدى المخاطَب أو السّامع. ويتجلى هذا المنظور من خلال الوقوف عند صياغة مسلمات التّأدب عند ليتش:

- **مسلمة اللباقة تقتضي:** –ليقلل المتكلّم من الجهد للحدّ الأقصى. – ليستفيد المستمع للحد الأقصى؛
- **مسلمة التّواضع تقتضي:** –ليقلل المتكلّم تمجيده وإطراءه لذاته للحد الأدنى.
  – ليستفيد المستمع من الإطراء والتّمجيد للحدّ الأقصى.
- **مسلمة التّعاطف تقتضي:** –ليقلل المتكلّم نفوره من المخاطَب للحد الأدنى.
  – ليرفع المتكلّم تعاطفه مع المخاطَب للحد الأقصى.
- **مسلمة التّقدير ومسلمة الاستحسان تقتضيان:** –ليقلل المتكلّم من امتعاض المخاطَب للحدّ الأدنى.
- – ليرفع المخاطب من رضا المخاطَب للحد الأقصى.
- **مسلمة السّخاء تقتضي:** –ليقلل المتكلّم من الفائدة الشّخصيّة للحد الأدنى.
  – ليرفع المتكلّم الفائدة للحدّ الأقصى» [25].

وفيما يلي نتطرق إلى التّمثيل على هذه المسلمات من التّراث البلاغي العربي، لإظهار مدى عنايتهم بأساليب التّخاطب وعدم تجاهلهم لأهميّة كيفيّة إلقاء الخطاب ومدى تأثيره في المتلقي وتحقيق القصد منه كما يلي:

- **مسلمة اللباقة تقتضي:** –ليقلل المتكلّم من الجهد للحدّ الأقصى.
  – ليستفيد المستمع للحد الأقصى.

يظهر مضمون هذه المسلمة فيما يلي: قال عبد الكريم بن روح الغفاري، حدّثني عمر الشّمّري، قال: قيل لعمرو بن عُبيد: «ما البلاغة؟... قال عمر كأنّك إنّما تريد تخيُّر اللفظ، في حسن الإفهام، قال نعم، قال: إنّك إن أتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشّواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسّنة، كنتَ قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثّواب»[26].

فعبارة "تخفيف المؤونة على المستمعين" تدل على الاختصار دون اخلال بالمعنى المراد وهذا فيه تقليل للجهد المبذول بكثرة الكلام الذي يمكن الاستغناء عنه وحصول الفائدة للمستمع دون إرهاق، وعبارة "تزيين تلك المعاني في قلوب المريدين" هو عامل

آخر مساعد على حصول استفادة المستمع لأنّ تزيين المعاني يغرسها في القلوب غرسا سلسا، ويشدّ الانتباه ويبعث الشّوق في النّفوس، وبالتّالي يحقق الخطاب مغزاه ويبلغ المتكلّم مبتغاه. وعبارة "المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم" توحي بضرورة أن يكون الكلام مفيدا للسامع أو على الأقل غير مرفوض من قبله حتى يستجيب لمحتوى الخطاب.

- **مسلمة التّواضع تقتضي:** –ليقلل المتكلّم تمجيده وإطراءه لذاته للحد الأدنى.

يظهر معنى هذه المسلمة في كلام الجاحظ الآتي: «والعجب مذموم...وإنّما العجب إسراف الرّجل في السّرور بما يكون منه والإفراط في استحسانه، حتى يظهر ذلك في لفظه وفي شمائله.[27] إبداء العجب بالنّفس يشعر المتلقي باستعلاء المتكلّم عليه وازدراءه به، مما يؤدي إلى نفوره وعدم رغبته في تلقي هذا الخطاب، الأمر الذي يُحْدِث شرخا في العلاقة بين طرفي الخطاب وهذا منافٍ لمبدأ التّأدب.

– ليستفيد المستمع من الإطراء والتّمجيد للحدّ الأقصى.

أمّا هذه ففيها نظر، لأنّها تحتاج إلى تقييد وتقنين بحسب حال المستمع وأخلاقه وظروف المقام التي تؤطر المقال. قال بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات...»[28] فينبغي أن يكون الإطراء والتّمجيد لمن يستحقه من المستمعين، وليس كل مستمع يستحق ذلك، فلا قيمة لكلام لا صدق فيه، بل قد تنجر عنه أضرار كثيرة لا تحمد عقباها ولا يعرف مداها وامتدادها.

- **مسلمة التّعاطف تقتضي:** –ليقلل المتكلّم نفوره من المخاطَب للحد الأدنى.

– ليرفع المتكلّم تعاطفه مع المخاطب للحد الأقصى.

نجد فحوى هذه المسلمة متضمنا في العبارات الآتيّة: «لا تُقبل بحديثك على مَن لا يُقْبِل عليه بوجهه.»[29] إنّما تتضح الأمور بأضدادها، فهذا الكلام يعني اجعل المخاطَب ينجذب إلى كلامك، ولا يجد بُدّا من الإصغاء إليه، ولا مفرا من تقبّله

والإذعان إلى فحواه تحت تأثير سلطة اللغة وجودة المعنى لا غير. كما نتحسس وجودها في هذا الكلام بشكل خفي غير ظاهر، قال عبد الله بن مسعود: «حدِّث النّاس ما حدجوك بأبصارهم، وأذِنوا لك بأسماعهم، [ولحظوك بأبصارهم]، وإذا رأيتَ منهم فترة فأمسك»[30] وهذه العبارات تدعو إلى التّعاطف مع المخاطَب إلى الحد الأقصى ومراعاة شعوره وتقبّل مواقفه من الخطاب الذي يتلقّاه، واعتباره هو المتحكم في مقدار ما يتلقى إقبالا وإحجاما.

- **مسلمة التّقدير ومسلمة الاستحسان تقتضيان:** –ليقلل المتكلّم من امتعاض المخاطَب للحدّ الأدنى.

نلمح معناها متضمنا في هذا الكلام، قال بعض الحكماء: «من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع.» [31]ومؤدى هذه العبارة بالخُلْف، أي قدِّم خطابا لا يمتعض منه السّامع، بحيث يكون محفزا لنشاطهم جالبا لاستماعهم، ويحظى بالقبول لديهم.

– ليرفع المخاطِب من رِضَا المخاطَب للحد الأقصى.

تتجسد هذه القاعدة فيما يلي: قال إسحاق بن حسان بن قوهيّ: «لم يفسِّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحدٌ قط. سئل ما البلاغة؟... قيل له: فإن ملّ السّامع الإطالة... قال: إذا أعطيتَ كل مقام حقّه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ، فإنّه لا يرضيهما شيء»[32]. ليس كل مخاطَب يستحق الإرضاء، فقد يكون من أهل الباطل أو ظالما أو من أصحاب الأهواء والضّلال، يجب التّصدي له بحكمة ومحاولة إرجاعه إلى جادة الصّواب وعدم موافقته على ما هو عليه ولو بإزعاجه وإغضابه، فالحقّ أحق بالاتباع فالتّعميم المطلق قد يوقع في الزّلل وإحداث الخَلل لذا وجب الاحتراز. ولهذا قنّن ابن المقفع رِضَا المخاطَب، وليس على إطلاقه كما في هذه القاعدة، فالمخاطَب تختلف أوضاعه وحالاته، فإذا كان حاسدا أو عدوّا أو غير ذلك لا يمكن إرضاؤه، بل يستحيل ذلك، بل ينبغي عدم إرضائه أحيانا، وقد يجب إغضابه إذا كان مناهضا للحقّ.

- **مسلمة السّخاء تقتضي:** –ليقلل المتكلّم من الفائدة الشّخصيّة للحد الأدنى.

– ليرفع المتكلّم الفائدة للحدّ الأقصى. نستشف معنى هذه المسلمة بالتّقريب في الكلام الآتي:

يقول بشر بن المعتمر: «...والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصّة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامّة معاني الخاصّة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدّهماء ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التّام»[33]. يشير بشر بن المعتمر أن شرف المعنى لا يتم إلاّ إذا كان صوابا محققا للمنفعة موافقا للحال، فهذا يدل دلالة واضحة على توخي المتكلّم إحراز الفائدة قد تكون متبادلة بين طرفي الخطاب أو مقتصرة على أحدهما إلاّ أنّ القاعدة الأولى من هذه المسلمة تنص على تقليل الفائدة لصالح المتكلّم: " ليقلل المتكلّم من الفائدة الشّخصيّة للحد الأدنى." نرى فيها شططاً وإجحافاً، فما المانع من أن تكون الفائدة متبادلة بين طرفي الخطاب بالتّساوي؟ أو يفوق نصيب أحدهما الآخر بشرط ألا يكون فيها ظلم أو خداع وغرور وتضليل. فالأصل لا ضرر وإضرار فتقليل الفائدة لصالح المتكلّم قد يلحق به الضّرر.

أمّا قوله: «... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك،... إلى أن تفهم العامّة معاني الخاصّة» ففيه رفع لسقف الفائدة لصالح المتلقي والتّقليل من حظ النّفس لأنه يتطلب منه بذل جهد أكبر ليحصل له ذلك المبتغى.

وممّا يدل على ذلك أيضا قول الجاحظ: «وعلى قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع»[34]. حيث بيّن في هذا الكلام العوامل التي ينبغي أن تتوفر في الخطاب كي يتحقق رفع مستوى الفائدة لدى المخاطَب من خلال ظهور المعنى المراد تبليغه له.

وتُظهر هذه المسلمات التّقدير الكبير الذي يحظى به المخاطَب ومدى مراعاة شعوره والحث على البعد عن كل ما يعكر جوّ الحوار بينهما. وهي من أهم مبادئ

المعاملة الإنسانيّة بين أطراف الخطاب. فالمتكلّم يقلل من حظّ ذاته للحدّ الأدنى ويزيد من استفادة المخاطَب للحدّ الأقصى من جوانب تخاطبيّة متعددة تظهر تعاطفه مع محاوره وشدّة تواضعه له وسخائه معه.

2 -3-مبدأ الوجـه: «يجب على المرسل أن يصون وجه غيره، ففي صيانة وجه غيره، صيانة لوجهه هو أيضا، وذلك علامة على الاحترام المتبادل والتّعاون بينهما. ويقترح (براون وليفنسون) هذا المبدأ، بوصف الوجه هو رغبات الإنسان الأساس فيقسمانه قسمين رئيسين هما:

- الوجه الدّافع، وهو: رغبة الإنسان في ألا يعترض الآخرون على أفعاله؛
- الوجه الجالب وهو: رغبة كل واحد في أن تكون إرادته محترمة على الأقل من البعض الآخر»[35].

وهاتان القاعدتان ينبغي ألا نجاريهما على إطلاقهما، بل يستوجب تقييدهما بضوابط تحفظ القيم الدّينيّة والعقائديّة وفضائل الأخلاق ومبادئ العقل السّليم، لأنّ الإطلاق قد تتسرب منه الشّرور، وقد يفتح بابا لا يسد للتخلص من المبادئ والقيم التي تحفظ كيان الأمّة وتصونها من الزّلل والانحراف. فكيف لعاقل أن يحترم رغبة مجرم أو فاسق ماجن أو رغبة خائن أو ضال أو يحترم إرادة ظالم غاصب، وهذه الأنواع من الرّغبات والإرادات هي معاول هدم لأسس الحياة السّليمة السّويّة، لأنّنا ننجز بالأقوال أفعالا، وبها نغيّر أحوالا، ونكتسب أموالا، ونحدد مآلا. لذا وجب الاحتراز من احترام المقال المحدِّد للمآل. فالعبرة بمآلات الأمور كما يقول الفقهاء وعلماء الأصول.

نلمح فحوى هذه القاعدة بشكل خفي يدل على رغبة الإنسان في صيانه وجه غيره، لأجل تحقيق الاحترام المتبادل وإظهار التّعاون بين طرفي الخطاب فيما يلي:

قال بشر بن المعتمر: «... كما أنّه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّوبها أشغف» [36]. قدّم بشر بن المعتمر مثالا يدل على "رغبة كل واحد في أن تكون إرادته محترمة". وهو رغبة المتكلّمين في استعمال

مصطلحاتهم الدّالة على أفكارهم، حاثّا الخطيب على مراعاة ذلك بانتقاء ألفاظهم إن تكلّم في مجال اختصاصهم معللا ذلك بتعلقهم بها وميلهم إليها، ويمكن تعميم هذا على باقي مجالات الحياة الأخرى. بحيث يراعي الخطيب ميول الفئة التي يوجه إليها خطابه دون أن يدفعه ذلك إلى الخروج عن جادة الصّواب ومجانبة الحقّ.

واحترام هذا المبدأ يزرع الودّ بين طرفي الخطاب ويبعدهما عن العنف بشكليه اللفظي والجسدي، وهذا ما يجعله يصون الجانب الأخلاقي بتأسيسه لعلاقة الاحترام المتبادل وحفظ كرامتهما معا (حفظ ماء الوجه)، وتجنب الأفعال اللغويّة التي تسيء إلى الآخر التي هي منشأ جل الخلافات والخصومات التي قد تقود إلى صراع لا تحمد عقباه.

خاتمة: –حرص البلاغيون العرب القدامى على تقنين قواعد التّخاطب بين المتخاطبين تقنينا فريداً من نوعه حاز قصب السّبق في هذا الميدان مراعاة لمتطلبات المقام ومقتضيات الحال. إلاّ أنّها مادّة خام تحتاج إلى دراسة وتحليل لاستجلاء كنوزها؛

–ينبغي تطعيم النّظريات الغربيّة الحديثة في مجال الدّراسات اللغويّة بشواهد من التّراث اللغوي العربي الأصيل التي تتقاطع معها ولو في بعض الجزئيات وذلك تحقيقا لعدة أهداف منها: إحياء التّراث اللغوي العربي وبعث روح التّجديد فيه، اكتساب الملكة اللغويّة العربيّة الأصيلة الفصيحة، اكتساب ونشر القيم الرّوحيّة والشّيم الأخلاقيّة التي تتضمنها الكنوز الأدبيّة العربيّة، عكس ما تحتوي عليه الأمثلة التّوضيحيّة الغربيّة الجافة الخاليّة غالبا من أيّ قيمة تذكر...؛

–تحتاج بعض قواعد التّخاطب إلى إعادة النّظر فيها وعدم تركها على إطلاقها بل يجب تقييدها وتقنينها بما يتوافق مع القيم الدّينيّة والثّوابت الإنسانيّة والمبادئ العقليّة السّليمة، كقاعدة "إرضاء المخاطَب إلى الحد الأقصى"، وقاعدة "ليستفيد المستمع من الإطراء والتّمجيد للحدّ الأقصى". فليس كل مخاطَب يستحق ذلك؛

–صيغت مبادئ التّخاطب في التّراث البلاغي العربي عموما بصيغة المفرد المخاطَب مثلما هو موجود غالبا في قواعد التّخاطب عند الغربيين وذلك لشدّ انتباه

المتلقي بأنه هو المقصود بتطبيق هذه المبادئ التّخاطبيّة قبل غيره ليؤدي خطابه مقصوده، ويحقق هدفه، ويربط جسور التّواصل لإنشاء علاقات تخاطبيّة جيدة بين الطّرفين.

هوامش البحث:

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة 2002، ص14.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 22.

[3] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 1، 2016 ص101.

[4] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1998، ص 93.

[5] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 191.

[6] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 105.

[7] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، ص 101.

[8] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 197.

[9] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، ص 102.

[10] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 99.

[11] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 107.

[12] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، ص 102.

[13] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 75.

[14] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 84.

[15] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 96.

[16] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 97.

[17] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 76.

[18] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 113.

[19] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 79.

[20] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 135و136.

[21] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، ص 107.

[22] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 115و116.

[23] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 135و136.

17

[24] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 85و86.

[25] - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتجاهاتها، ص 115.

[26] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 114.

[27] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 98و99.

[28] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 138و139.

[29] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 104.

[30] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 104.

[31] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 105.

[32] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 115و116.

[33] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 135و136.

[34] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 75.

[35] - عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 103و104.

[36] - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 1، ص 139.